بقدر ما انجبت بغداد من علماء تركوا بصماتهم على الادب والتاريخ والفكر الاسلامي بقدر ما كان ابنها الخطيب البغدادي سمة مميزة كبيرة لها .. وشخصية جليلة القدر لم تترك بصماتها فحسب على بغداد ولكن على التاريخ الاسلامي والادب وعلوم الحديث كلها .

والخطيب البغدادي شخصية فذة ومتميزة .. من كافة جوانبها فيكفي انه سمع الاحاديث والعلوم المختلفة ولم تتجاوز سنوات عمره التي عشرعاما ويقول في ذلك الحافظ ابن كثير : (١) « ولد سنة احدى وتسعين وثلاثمائة واول سماعه سنة ثلاث وأربعمائة » .

وكون الخطيب اصبح وهو في هذا العمر يقرأ ويعي ويسمع ويفهم ويسأل فان هذا يدل على ان الله تبارك وتعالى قد هيأه لتلقي العلوم المختلفة ونيته لكي يكون احمد من أشهر من كتبوا ودافعوا عن احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم .. والدفاع عن احاديث التي انما هو دفاع عن الدين ..

ومع الخطيب البغدادي .. نتأمل حياته .. وثقافته .. ومؤلفاته .

خطيب بغداد ومحدّثها

الخطيب البغدادى

للأستاذ / معالى عبد الحميد حموده

من هو الخطيب البغدادي

أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدى . أبو بكر الخطيب البغدادي أحد مشاهير الحفاظ وصاحب تاريخ بغداد وغيره من المصنفات العديدة المفيدة له نحو من ستين مصنفا ويقال بل مائة مصنف .

ولد سنة احدى وتسعين وثلاثمائة وقيل سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة والاول أشهر وأول سماعه سنة ثلاث وأربعمائة . نشأ ببغداد وتفقه على يد أبي طالب الطبري وغيره من أصحاب الشيخ أبي حامد الاسفرائي وسمع الخطيب الحديث الكثير ورحل الى البصرة وأصبهان والشام والحجاز .

سمي « الخطيب » لانه كان يخطب بدرب ريحان . وسمع بمكة المكرمة على القاضي ابي عبدالله محمد بن سلامة القضاعي وقام برحلات واسعة لاستكمال دراسته . قرأ صحيح البخاري على كريمة بنت احمد في خمسة ايام . ورجع الى بغداد وحظى عند الوزير ابي القاسم بن مسلمة (٢) بمكانة كبيرة .

تجلت غيرة الخطيب على الدين الاسلامي حين زعم اليهود — لعنهم الله — ان معهم كتابا نبويا فيه اسقاط الجزية عنهم وتصدى لهم الوزير ابن مسلمة واحضرهم الخطيب الذي قام رحمه الله بموقف غاية في البراعة والتحليل الصحيح اذ قال خطيب بغداد :

« هذا كذب . فقيل له : وما الدليل على كذبه ؟ فقال الخطيب :

« لان فيه شهادة معاوية بن ابي سفيان ولم يكن اسلم يوم خيبر وقد كانت خيبر في سنة سبع من الهجرة وانما أسلم معاوية يوم الفتح . وفيه شهادة سعد بن معاذ وقد مات قبل خيبر عام الخندق سنة خمس فاعجب الناس ذلك » .

وحين وقعت فتنة البساسيري ببغداد واسقط البساسيري وليه ابن المسلمة ٤٥٠ هجرية (١٠٥٨ ميلادية) منعت الحنابلة الخطيب ان يواصل تدريسه بجامع المنصور فذهب الى دمشق وقبض عليه بتهمة اللواطة ولم ينج من عقوبة الموت التي قضى بها عليه والى الفاطميين الا للمكانة التي اضفاها عليه علمه (وسنقوم باذن الله بكشف هذه التهمة من اساسها) .

فر الخطيب من دمشق الى بيت المقدس ثم صور فمدينة حلب ولم يتمكن من العودة الى وطنه إلا سنة ٤٦٢ هجرية (١٠٦٩ م) ولفظ انفاسه الاخيرة وصعدت روحه الى بارئها سنة ٤٦٣ هجرية (١٠٧١ ميلادية) .

دعاء الخطيب البغدادي عند زمزم

قبل ان نتحدث عن مكانة الخطيب البغدادي يهمنا ان نسجل موقفا للخطيب لنتعرف

فيه منه على لجوء الخطيب البغدادي الى الله تعالى وتقيا — في نفس الوقت — عن التهمة التي الصقت به وهو منها براء — تهمة اللواطة — ..

ذلك الموقف حين خرج من بغداد سنة ٤٤٤ هجرية في طريقه الى بيت الله الحرام فيمر على دمشق وصور ثم يصل الى مكة المكرمة ويقضي فريضة الحج ويتجه الى بئر زمزم فيشرب منه ثلاث شربات آخذا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ماء زمزم لما شرب له »

ويسأل الله عز وجل ثلاث حاجات :

الاولى ان يحدث بتاريخ بغداد ببغداد

الثانية : ان يملي الحديث بجامع المنصور

الثالثة : ان يدفن عند قبر بشر الحافي

ذلك الدعاء ان دل على شيء فانما يدل على عقل راجح للخطيب البغدادى فهو يلجأ الى الله عز وجل طالبا العلم والكتابة والعلوم والتاريخ وان يكون هذا كله بجامع المنصور حيث ضمانا لنشر حديثه وكتاباته وحديثه عن احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم . ثم بعد وفاة الخطيب — وهو يعلم انه سيلقى الله الحي الذى لا يموت — يتمنى ان يهيىء الله له جوارا حسنا بعد مماته حتى اذا بعث الناس من قبورهم يوم القيامة خرج من قبره فوقع نظره على بشر بن الحارث الحارفي وهو رجل لم تدنس نفسه الدنيا .

ولحقق للخطيب كل الذى طلبه من الله عز وجل ..

مصادرثقافة الخطيب وينابيع اثاره

اعتمد الخطيب البغدادي في ثقافته على شيوخ شتى أخذ منهم العلم وبرع فيه حتى انه بعد فترة وجيزة انطبق عليه المثل القائل « ان التلميذ يتفوق على استاذه » وما بات هذا كله من فراغ مطلقا ولكن المتأمل لمصادر ثقافة الخطيب يجد ان الله عز وجل هيأ له الاسباب التي جعلته ينهل من العلوم والمعرفة ويصير الى ما صار إليه .

فمن الشيوخ الذين أخذ الخطيب منهم العلم

— ابراهيم بن عقيل بن جيش بن محمد ابو اسحاق بن المكبرى . من علماء النحو .

— ابراهيم بن محمد بن جعفر الباقر حى ابو اسحاق فى أهل العلم والمعرفة بالأدب كان ينتحل مذهب ابن جرير الطبرى .

— أحمد بن حسن الحيري . أبو بكر . أصولي متكلم محدث .

— أحمد بن الحسين الكسار . أبو نصر راوي سنن النساء .

— أحمد بن عبدالله بن اسحاق المهراني . أبو نعيم . الحفاظ صاحب حلية الاولياء .
— أحمد بن محمد بن دوست أبو سعيد النيسابوري .
شيخ الشيوخ ببغداد .
— أحمد بن محمد بم أحمد أبو الحسين بن المتيم . الواعظ أقدم البغداديين سماعا ممن اخذ منهم الخطيب .
— أحمد بن محمد بن عبدالله بن حفص بن الليل . أبو الماليني الحافظ . طاووس الفقهاء وكان عنده من الكتب الطوال ما لم يكن عند غيره .
— أحمد بن محمد بن غالب . أبو بكر البرقاني . ذو حظ في علم العربية . عارف بالفقه لم ير الخطيب اثبت منه .
— الحسن بن محمد بم عبدالله بم حسنوية . أبو الاصبهاني .
— طاهر بن عبدالله بن طاهر أبو الطيب الطبري . فقيه لم ير أبو اسحاق الشيرازي اكمل اجتهادا واشد تحقيقا واجود نظرا منه .
— عبد السيد بن محمد بن عبد الواحد . أبو نصر بن الصباغ . فقيه . شافعي . صاحب الشامل .
— علي بن يحيي بن جعفر . أبو الحسن بن عبد كويه — محدث . امام جامع اصفهان .
— القاسم بن جعفر بن عبد الواحد . أبو عمر الهاشمي . راوى السنن .
— محمد بن أحمد بن رزقويه . ابو الحسن البزاز . محدث كثير السماع والكتابة .

ومن اقرانه الذين حدث عنهم وحدثوا عنه

—أبو اسحاق الشيرازي. ابراهيم بن علي الفيروزابادي . فقيه شافعي واول مدرس في النظامية ببغداد .
— ابن خيرون أبو الفضل . أحمد بن الحسن بن أحمد . حافظ ناقد .
— ابو محمد الكتاني . عبد العزيز بن احمد . صوفي حافظ جليل .
— أبو نصر بن كاكولا . علي بن هبة الله بن جعفر . لم يكن ببغداد بعد الخطيب أحفظ منه .
— أبو الحسن الطيوري . المبارك بن عبد الجبار بن أحمد . محدث كبير .
— أبو عبدالله الحميدي الاندلسي . محمد بن فتوح بن عبدالله . أحد حافظ عصره .
— المقدسي . نصر بن ابراهيم بن نصر . من كبار الفقهاء الاجلاء .
وغيرهم كثيرون ..

وكان نتيجة لهذه المصادر الثقافية والعلمية الجليلة ان اتت الثمرة اشهر مما يريد الخطيب البغدادي نفسه .. فصار الخطيب علما من اعلام بغداد يرفرف في سماء الادب والعلوم

والحديث في التاريخ الاسلامي .

وكانت الثمرة الثانية لذلك ان تلاميذ الخطيب البغدادي صاروا هم ايضا من ينابيع الثقافة في بغداد ودمشق وصور وحمص واماكن اخرى عديدة .

بلاغة شعر الخطيب

ليس كل من قال شعرا يعد بليغا .. ولكن المتأمل في الشعر العربي ذاته والذي قاله الخطيب يدرك ان خطيب بغداد لم يكن يقل الشعر على عواهنه بل انه ايضا كان فصيحا بالادب بليغا وصل الى ما لم يصل اليه اقرانه او شيوخه .

ولنحيا مع ابيات من قصيدة جيدة المطلع حسنة اللفظ عميقة المعنى ذكرها ابن الجوزي [٣]

لعمرك ما شجانى رسم دار
وقفت به ولا رسم المغانى
ولا أثر الخيام أراق دمعى
لأجل تذكرى عهد الغوانى
ولا ملك الهوى يوما قيادى
ولا عاصيته فثنى عنانى
ولم أطمعه فىّ وكم قتيل
له فى الناس ما تحصى دعانى
عرفت فعاله بذوى التصابى
وما يلقون من ذل الهوان

ومنها أيضاً

ولم أك فى الشدائد مستكينا
أقول لها ألا كفى كفانى
ولكنى صليب العود عود
ربيط الجأش مجتمع الجنان
أبى النفس لا أختار رزقا
يجيء بغير سيفى أو سنانى
لعز فى لظى باغيه يهوى
ألذ من المذلة فى الجنان

وقد ترجمه ابن عساكر [٤] ترجمة حسنة وأورد له من شعره قوله :

لا يغبطن أخا الدنيا لزخرفها   ولا للذة عيش عجلت فرحا
فالدهر أسرع شيء في تقلبه   وفعله بين للخلق قد وضحا
كم شارب عسلا فيه منيته   وكم مقلد سيفا من قربه ذبحا

اتهام باطل للخطيب

يصعب على المرء منا ان يصدق ان انسانا بلغ مثل هذا الشأن الكبير وهذا الانسان لا غبار عليه في دينه بل انه حج الى بيت الله الحرام وكان مدافعا كبيرا عن الاحاديث النبوية وعلوم الدين الاسلامي .. يصعب على المرء منا ان يصدق الاتهامات التي كالها بعضهم للخطيب البغدادي .

وبرغم ان القول يقول : كلما علا نجم المرء كلما ازداد تعرضا للهجوم من الحاقدين وبرغم ان هذه القول ينطبق على الخطيب الا انه انصافا للحق وضمانا لشرف الكلمة يحسن بنا ان نفند هذه المزاعم التي الصقها البعض بالخطيب البغدادي وسار من ورائه عدد من الكتاب فأوردوا تلك الاتهامات دون محاولة لكشفها او ثباتها .

وكانت تلك الاتهامات تنحصر في شيئين :

١ — اتهامه باللواطة .
٢ — اتهامه بقول الشعر الغير عفيف في حب الغلمان .

وكما قلنا رغبة في تحديد الحقيقة والتعرف على هذه الاتهامات هل هي صحيحة أم لا يحسن بنا ان نعرف هذه الاتهامات ومصادر رواتها كي يمكن بعدها الوصول الى الحقيقة .

حين حل شهر صفر من سنة ٤٥٩ هجرية اضطر الخطيب البغدادي الى مغادرة دمشق على أسوأ ما تكون المغادرة فهو مهدد بالقتل ومعرض للاهانة وذلك انه كان من بين الكتب التي سمعها وقرأها :

كتاب فضائل الصحابة (٥)
وكتاب فضائل العباس (٦)

ودرس الخطيب هذين الكتابين بإمعان شديد وعلم الحسين على المعروف بالمقرى الدمشقى وكان شيعيا بالغ التعصب فنمى الخبر الى أمير الجيوش وقال : هو ناصبى (٧) يروى فضائل الصحابة وفضائل العباس في الجامع .

فأمر أمير الجيوش بالقبض عليه .

الى هنا وان سلمنا بصدق هذه الرواية — والخلفيات تؤكد صدقها للتعصب الرهيب في

المذاهب — فان هذه الحادثة لا تشين الخطيب مطلقا فالفطاحل من المؤلفين والعلماء والكتاب تعرضوا بهذا وغيره كثيرا .

الا ان الوقيعة حدثت بعد هذا مباشرة اذ يقول ابن طاهر (٨) طاعنا في الخطيب : (كان سبب خروج ابى بكر الخطيب من دمشق الى صور انه كان يختلف اليه صبى مليح فتكلم الناس فى ذلك وكان أمير البلد رافضيا (٩) فبلغته القصة فجعل ذلك سببا للفتك به) .

وقع اتهام الخطيب البغدادى اذن ..

وكما يقال الكذب ساقاه صغيرتان .. وكأن الله يريد ان يكشف الحقيقة اذا بابن طاهر نفسه يكشف كذبته الحمقاء وفريته الخابطة فيقول :

(وكان صاحب الشرطة سنيا فقصد الخطيب تلك الليلة مع جماعة ولم يمكنه ان يخالف الأمير فأخذه وقال : قد أمرت فيك كذا وكذا ولا أجد لك حيلة الا أن أعبر بك على دار الشريف ابن أبى الجن (١٠) فاذا حاذيت الباب اقفز وادخل الدار فأرجع الى الأمير بالقصة) .

تلك كانت العبارة بنصها .. ولا يمكن لنا ان يتصور عقلنا ان صاحب الشرطة يغامر بنفسه وبمركزه وعنقه في سبيل ان يمهد سبل الفرار للخطيب البغدادى .. وان جاز وقبلنا ان صاحب الشرطة اراد ان يغامر بكل شيء وان ييسر الهروب للخطيب .. فماذا يا ترى كان رأى الجماعة التى رافقت صاحب الشرطة في القبض على الخطيب البغدادى ؟؟؟

ان تسلسل الاحداث المنطقية في هذه الرواية يجعلنا لا نأخذ بها كقرائن ثابتة بل يجعلنا نصل الى الصواب الفعلى وهو ان سبب اتهام الخطيب باللواطة مرجعه الاول والاخير هو التعصب المقيت للمذاهب كما يقول بذلك ابن عساكر في كتابه (١١) وكما يقول الحافظ ابن كثير فى كتابه البداية والنهاية (١٢) بالنص « اتفق يوما أنه قرأ فضائل العباس فثار عليه الروافض وأتباع الفاطميين وأرادوا قتله » .

هذه واحدة .. والواحدة الثانية ان كل المصادر الصحيحة والوثيقة بالتاريخ والأدب لم تذكر ولو شبهة واحدة يمكن ان تدين الخطيب البغدادى .

وعن الاتهام الثانى بذكر الشعر غير العفيف فى حب الغلمان فلم يثبت ان الخطيب البغدادى قال مثل هذه الأشعار .. وان كان الخطيب قد بدرت منه مثل هذه الأشعار فان الكثير قالوا مثل هذا تمرنا على قول الشعر أو تظرفا فيه (١٣)

ولا يسعنا هنا الا ان نستشهد بقول رب العالمين جل وعلا فى القرآن الكريم (١٤) « والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون » .

الصورة العامة للخطيب البغدادى

برغم المكانة العالية التى وصل اليها الخطيب البغدادى الا انه لم يتطرق اليه الغرور فى اى يوم من الايام ولقد كان الخطيب انسانا بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان وماتشير اليه من ايماءات .

ولنتعرف على جملة اخلاقه الفاضلة رحمه الله .

وها هى اقوال علماء العصر الذين قالوا ما يمكن ان يبرىء ذمتهم أمام الله عز وجل والتاريخ .

ففى تاريخ دمشق يرد قول على لسان الذهلى : (١٥) «انه لم يدرك مثله» .

وفى نفس المصدر نقرأ لأبى على البردانى قوله : (١٦) «ما رأيت مثله ولا أظن رأى مثل نفسه ولكن التكبر والخيلاء لا يجد ان منالا منه وقد عرف عن نفسه علو الكعب واكبار الناس فهو متواضع فى نفسه وفيا يعتقده فيها وهو اذا سأله أحدهم عند لقائه قائلا : انتهى الحفظ الى الدارقطنى . أنا أحمد بن على الخطيب» . والسمعانى (١٧) يصف اخلاق الخطيب جملة فيقول : «كان فى درجة الكمال والرتبة العليا خلقا وخلقا وهيئة ومنظرا» .

ويمتد التقييم لعلم الخطيب وعمله فيقول ابن ماكولا فى تاريخ دمشق : (١٨) «كان أبو بكر الخطيب آخر الأعيان ممن شاهدناه معرفة وحفظا واتقانا وضبطا لحديث رسول الله صلى عليه وسلم وتفننا فى علله وأسانيده وخبرة برواته وناقليه وعلما بصحيحه وغريبه ومفرده ومنكره وسقيمه ومطروحه» .

وهذا الوصف جامع مانع ترى فيه الخطيب قويا فى علمه عظيما فى تحقيقه وخبرته وهو وصف صدر عن ابن ماكولا وغنى عن القول ان نقول ان ابن ماكولا كان متينا فى الحديث عارفا بالخطيب متتبعا لكل ما يكتب الخطيب من سمين وغث وفى هذا الرأس الكفاية وعليه الاعتماد .

مؤلفات ومصنفات الخطيب

برع الخطيب البغدادى فى مؤلفاته التى أخذت جهده الكبير والتى قضى فيها سنوات عمره كلها فى كتابة تلك المؤلفات البارعة والمصنفات المفيدة النافعة . ولقد تجلت براعة الخطيب البغدادى فى اشهر مؤلفاته «تاريخ بغداد» (١٩) ثم ابرز باقى براعته فى مؤلفاته عن الحديث النبوى وعلم الحديث والفقه والاصول والكلام والعبادات والائمة والفقهاء والمسلمين والقرآن الكريم وغيرها فجاءت مؤلفات الخطيب البغدادى من كل بستان زهرة .

ومما يؤسف له ويجلب الحزن والأسى ان تلك المؤلفات العديدة والمصنفات المفيدة قد ضاعت وأمحت فلم يبق منها الا عدة مؤلفات متناثرة هنا وهناك .

ومن تلك الكتب :
— تاريخ بغداد
— أبطال النكاح
— اجازة المجهول
— احاديث مالك
— الاحتجاج للشافعي
— أدب الفقيه
— اذا اقيمت الصلاة
— اسماء من روى عن مالك
— أمالي الخطيب
— البخلاء
— البسملة من الفاتحة
— تالي التلخيص
— التطفيل
— تقييد العلم
— تلخيص المتشابه
— التنبيه والتوقيف
— الحيل
— خطبة عائشة
— القول في علم النجوم
— كشف الاسرار
— الرباعيات
— غنية الملتمس
— مختصر السنن
— المسلسلات
— من حدث ونسي
— مناقب أحمد بن حنبل
— مناقب الشافعي
— المؤتنف والمؤتلف
— الوفيات
وغيرها من المؤلفات والمصنفات العديدة

مكانة الخطيب عند الناقدين

حين نريد تقييم الخطيب البغدادي فان الناحية العقلية الصحيحة تفرض علينا ان نسقط من الحساب اقوال اتباع ومؤيدى الخطيب وكذا اقوال خصومه .. ولنأخذ عند التقييم بأقوال الناقدين الاجلاء الذين لا هم لهم سوى الحقيقة لا اكثر ولا اقل .

فهذا ابن الاكفاني يقول : (٢٠) (كان ثقة ضابطا حلوحا متقنا متيقظا متحررا) .

وهذا السمعاني يقول : (٢١) (كان ثقة صدوقا متحريا حجة) .

ويقول عبد العزيز الكتاني : (٢٢)(كان ثقة حافظا متقنا ضابطا) .

ويقول عنه ابن ماكولا : (٢٣) (كان ابو بكر آخر الأعيان ممن شاهدناه معرفة وحفظا واتقانا وضبطا لحديث رسول الله — صلى الله عليه وسلم —) .

وقد لقبوه بالحافظ .. والحافظ لقب عزيز يقتضى علو الشأن وقد حدد الفقهاء والعلماء عن الحافظ فقال بعضهم « هو من حفظ اربعمائة ألف حديث » وقال آخرون « عشرة الاف حديث » وبالقول الاخير أخذ به الإمام الجليل أحمد بن حنبل وصحابة كثيرون من المحدثين .

والخطيب امام عصره يقول في ذلك السمعاني : (٢٤) « علامة العصر » .

وقال ابن النجار : (٢٥) « انتهى اليه علم الحديث وحفظه في وقته » .

ويكرر السمعاني اعجابه بالخطيب فيقول صراحة : (٢٦)« كان امام عصره بلا مدافعة وحافظ وقته بلا منازعة » .

ويصل السبكي بوصفه للخطيب الى القمة فيقول : (٢٧) « ما طاف سور بغداد على نظيره يروى عن افصح من نطق بالضاد ولا أحاطت جوانبها بمثله وان طفح ماء دجلتها وروى عن كل صاد » .

ولم ير النقاد مثل الخطيب ويقول في هذا المقام أبو على البرداني : (٢٨)« أما حافظ وقته أبو بكر الخطيب فما رأيت مثله ولا أظنه رأى مثل نفسه » .

ويصفون الخطيب بدارقطني زمانه .. وهذا قمة شرف ما بعده شرف للخطيب البغدادى فيقول ابن ماكولا : « لم يكن للبغداديين بعد أبي الحسن الدارقطني من يجرى مجراه ولا قام بعده بهذا الشأن سواه » (٢٩) .

ويقول المؤتمن الساجي : « ما أخرجت بغداد بعد الدارقطني أحفظ من أبي بكر الخطيب » (٣٠) .

ويقول أبو اسحاق الشيرازى : « أبو بكر الخطيب يشبه الدراقطني ونظرائه في معرفة الحديث وحفظه » (٣١) « هوذا دارقطني عصرنا » (٣٢) .

والخطيب ختم به الحديث فيقول ابن عساكر : (٣٣) (انه ختم به ديوان المحدثين) .

ويقول السمعاني : (٣٤) (انتهى اليه معرفة علم الحديث وحفظه وختم به الحفاظ) .

ويقول أبو الحسن الهمذاني : (ومات علم الحديث بوفاته) .

وان كان الخطيب أحد الذين خدموا الحديث وعلومه فقد استطاع ان يرفع من شأنه الى الاتقان وبذلك استحق ان يعترف بقدره ومكانته وعلو كعبه والاينسى نصيبه من المديح والثناء وكان ذلك فدل على أنه أخلص للعلم اخلاصا لا شك فيه وغدا الخطيب راية كبرى خفاقة فى علم الحديث والأدب والتواريخ .

وفاة الخطيب

بعد حياة طويلة اسعده الله فيها بالعلم ورفع مقامه بين الناس وعلا شأنه فى التاريخ قاطبة مرض الخطيب فى نصف شهر رمضان من سنة ٤٦٣ هجرية وكأنما قد شعر فى مرضه هذا بدنو أجله فلم يشأ الا أن يختم حياته بعمل صالح يودع به الحياة ويزيد من حسناته .

كان الخطيب قد صحب معه من الشام ثروة من الثياب والذهب فكتب الى القائم بأمر الله « انى اذا مت يكون مالى لبيت المال » ثم أوصى ان يتصدق بكل ما يخلفه من ثياب وغيرها ووقف جميع كتبه وتصانيفه على المسلمين وسلمها الى أبى الفضل بن خيرون فكان يعيرها فصارت الى ابنه الفضل فاحترقت فى داره .(٢٥)

واشتد به المرض ودنا الاجل .. وفى الساعة الرابعة من ضحى يوم الاثنين السابع من ذى الحجة سنة ٤٦٣ هجرية صعدت الروح الى بارئها عز وجل .

جنازة كبيرة لوداع الخطيب الى مثواه الأخير

تأخرت جنازة الخطيب الى اليوم التالى وأخرج بكرة يوم الثلاثاء من حجرته وعبروا بالجثمان الى جامع المنصور فى الجانب الغربى للصلاة فيه وكان فى انتظار جثمانه القضاة والأشراف والنقباء والشهود والفقهاء وأهل العلم والصوفية والعامة وخلق عظيم . وتقدم القاضى أبو الحسين ابن المهتدى بالله العزيز فصلى بالناس وكبر عليه اربعا على باب المقصورة ثم حملت جنازته ومعها ذلك الخلق العظيم وبين يدى الجنازة جماعة ينادون :

« هذا الذى كان يدافع عن رسول الله »

« هذا الذى كان ينفى الكذب عن رسول الله »

« هذا الذى كان يحفظ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم »

وكان الناس يتبركون بحمل النعش وكان فيمن حمله شيخ الخطب الامام أبو اسحاق الشيرازى رئيس الشافعية ببغداد وكان عمره آنذاك سبعين عاما .

وتم مواراة جثمان ذلك العملاق العظيم التراب .

وعادت قوافل الناس لأول مرة دون خطيب بغداد .. والقلوب حزينة للامام الذي أحب بغداد فعشقته وتعشق الحديث فوهبه وعطف على المحدثين فأفادهم بثمرة علمه ...... وكثر الزائرون لقبره في الأيام التي تلت وفاته وختم على قبره عدة ختمات من القرآن الكريم .

وبعد ؟؟؟

فتلك كانت صورة عن الخطيب البغدادى ابن بغداد .. كان عظيما فى حياته عظيما فى مماته عظيما فى تاريخه الذى تركه يتحدث عنه .. مدافعا عن احاديث النبى صلى الله عليه وسلم فصار الخطيب علما من اعلام الحديث والتاريخ ومشعل الاجيال تتدارس حياته ومواقفه الى ان تتوقف الأقلام كلها عن الكتابة .

بقلم
معالى عبد الحميد حموده

المصــادر

١ — تاريخ بغداد	الخطيب البغدادي (مكتبة محافظة الاسكندرية)
٢ — الأنساب	السمعانى (مكتبة محافظة الاسكندرية)
٣ — تاريخ دمشق	على بن الحسن ابن عساكر (مكتبة محافظة الاسكندرية)
٤ — وفيات الأعيان	ابن خلكان — مصر — المطبعة الميمنية سنة ١٣١٠ « مكتبة محافظة الاسكندرية »
٥ — طبقات الشافعية الكبرى	السبكى (مكتبة محافظة الاسكندرية)
٦ — ارشاد الأريب فى معرفة الأديب	ياقوت — مطبوعات دار المأمون
٧ — تاريخ الأدب العربي	كارل بروكلمان — دار المعارف بمصر
٨ — الحضارة الاسلامية	أدم متز — ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة
٩ — كتاب دول الاسلام	الحافظ شمس الدين الذهبى تحقيق فهيم محمد شلتوت ومحمد مصطفى ابراهيم — الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤
١٠ — الوسيط فى الأدب العربي	أحمد الاسكندرى ومصطفى عنانى — دار المعارف

مصر

١١ — الخطيب البغدادى — يوسف العش — قدم له أحمد أمين — المكتبة العربية فى دمشق — ١٩٤٥/٣/١٥ (مكتبة محافظة الاسكندرية .

---

(١) البداية والنهاية ١٠٢/١٢ .
(٢) رئيس الرؤساء شرف الوزراء جمال الورى أبى القاسم على بن الحسن بن أحمد المعروف بابن مسلمة .
(٣) فى المنتظم .
(٤) تاريخ دمشق .
(٥) الامام أحمد بن حنبل .
(٦) محمد بن أحمد بن رزقويه . أبو الحسن البزاز .
(٧) أى متعصبا ضد على بن أبى طالب كرم الله وجهه .
(٨) رجل أجمعت كل المصادر على كذبه ووقيعته وحقده على الخطيب البغدادى
(٩) من الرافضة .
(١٠) على بن ابراهيم بن العباس بن أبى الجن .
(١١) تاريخ دمشق ٣٤٩/٤ .
(١٢) البداية والنهاية ١٠٢/١٢ .
(١٣) انظر الوسيط فى الأدب العربى .
(١٤) سورة الشعراء الأيات ٢٢٦/٢٢٤ .
(١٥) أبو شجاع الذهلى .
(١٦) ارشاد الأريب فى معرفة الأديب لياقوت .

(١٧) الانساب للسمعاني (الجزء العشرون) .
(١٨) علي بن هبة الله بن جعفر . أبو نصر بن ماكولا (٤٢٢ — ٤٨٧) لم يكن ببغداد بعد الخطيب أحفظ منه .
(١٩) سنة ١٣٤٩ هجرية (١٩٣١ ميلادية) على أساس مخطوطة كوبرلي .
(٢٠) في ابن حاتم — الاربعين .
(٢١) في الارشاد .
(٢٢) تاريخ دمشق .
(٢٣) المصدر السابق .
(٢٤) في الارشاد .
(٢٥) في الوفيات .
(٢٦) الانساب .
(٢٧) طبقات الشافعية الكبرى .
(٢٨) تاريخ دمشق .
(٢٩) المصدر السابق .
(٣٠) المصدر السابق .
(٣١) المصدر السابق .
(٣٢) المصدر السابق .
(٣٣) المصدر السابق .
(٣٤) الارشاد .
(٣٥) المنتظم — الارشاد .

وذكر السبكي ان بعض مصنفاته احترق بعد موته قبل أن يخرج الى الناس . وقال الذهبي في تاريخ الاسلام في حوادث سنة ٤٨٣ هجرية ان دار أبي الفضل بن خيرون نهبت في هذه السنة .